

عناصر لفهم أزمتنا النقدية

ابراهيم الخطيب

قدم هذا التدخل في (اللقاء الثقافي الرابع) بإصيلا
(صيف 78) ونشر ، دون تعديل ، بجريدة (المحرر)
عدد 24 دجنبر 1978 .

أ. خ.

كان من المفروض أن يكون تدخلي جزءا من مجموعة من التدخلات (*) حول أزمة المنهج في النقد الأدبي بالمغرب . لكن ، نظرا لتغيب الاخوان الثلاثة ، فسيكون تدخلي قصيرا . موجزا ، على أساس أنه مجرد وجهة نظر قد تكون مناسبة لنقاش غني من طرف الحاضرين .

ان المشكل الاساسي الذي يعترض هذا الموضوع هو تحديد الناقد الأدبي : من هو ؟

- هل هو الشخص الذي يقوم بكتابة تلخيصات لأعمال أدبية ؟

- هل هو الذي يقدم عروضاً حول كتب ، روايات أو مجاميع قصصية أو دواوين ، ثم يدلي برأي عام في نهاية العرض ؟

- هل هو الشخص الذي يملك زادا نظريا يمكنه من رؤية النص فيتوصل الى بعض الظواهر ويتحاشي (عن قصد أو بدون قصد مسبق) ظواهر أخرى ؟

- أم هو ذلك المنظر ، الغائب - ربما - عن ثقافتنا النقدية العربية ، والذي يستطيع أن يقدم تحليلا شاملا وكليا للمشاكل الجوهرية البنيوية للنصوص .

ان تحديد وظيفة الناقد مهمة صعبة بدون شك . لكننا سننطلق من اعتبار ما هو واقع ، أي من تلك الكتابات التي نقرأها ، بصفة أساسية ، في الصحافة والتي تعني بالاشكال الأدبية المذكورة ، أو نقرأها في مجلات وطنية ، غير متخصصة ، لأنها تحتوي مجالات ثقافية متعددة .

وعندما نطرح ، كعنوان لهذه الجلسة ، « أزمة المنهج في النقد الأدبي

(*) كان المفروض ان يشارك في الجلسة الخامسة بالنقد كل من : محمد بريدة ، البشير الوادوني ، نجيب المولي بالإضافة الى ابراهيم الخطيب .

في المغرب ، فاننا نكون كمحصلي حاصل لمشكلة كانت مطروحة منذ أوائل هذا القرن في الثقافة المغربية (أبان البحث عن الخصائص المحايثة للمفاهيم والحقول المعرفية المختلفة) . لقد شهد القرن التاسع عشر تطورا في عدد من العلوم الانسانية : السوسولوجيا ، الانثروبولوجيا ، التاريخ الاقتصادي ... الخ ولكن الادب ، وبالتالي النقد الادبي ، بقيا اما كملحق لهذه العلوم ، أو كمعرفة تبحث عن موضوعها ، في هذا الصدد نجد ناقدا انجليزيا هو (ريتشاردز) يصف ، في سنة 1925 أزمة النقد الادبي على النحو التالي :

- « انه - أي النقد الادبي - يشبه مخزن حبوب فارغ » .

- « انه يحيج مجاملات ويصوغ مزيجا من التحذيرات » (اشارة الى النقد الذي يشكل هراوة على رأس المبدع)

- « انه كمية كبيرة من الملاحظات الصائبة ، لكنها غير منتظمة ، بعبارة أخرى : ان الناقد يخلو بمجموعة كبيرة من الملاحظات الصحيحة لكنها تبقى مشتتة ، دون أن تتشكل في بنية نظرية متكاملة » .

- « انه خطابة كثيرة » (حديث يستهلك نفسه) .

- « غموض لا يقطع » (لان الموضوع ، موضوع النقد ، غير محدد) .

الا يتعلق وصف (ريتشاردز) ، اذن ، بمشكلة عامة ، لا تزال حاضرة ؟ في نفس هذا الاطار ، وفي مدة قريبة جده ، سألت ميتزو زونا (شومسكي) ، في الاحاديث التي أجرتها معه ، عن علاقة اللسانيات بالنقد الادبي وعن مشاكل العلوم الانسانية ، وبالضبط : السوسولوجيا ، والدراسات الادبية ، فأجاب : « ان النقد الادبي يتحدث عن أشياء ولكنه بلا مبادئ » أي أنه لم يستطع أن يبني لنفسه منظومة من المفاهيم المحددة (شومسكي) : « ان المواقف في العلوم الانسانية والدراسات الادبية توجد في الغالب ، مشخصة » أي متعلقة بأشخاص - كل يدافع عن موقف . فعندما يتخذ موقف يجب أن يدافع عنه مهما تكن النتائج . وعلى هذه الصيغة تكون المواقف والمدارس متداخلة مع الافراد ، لانه في غياب المبادئ ، أي في غياب العلم ، تكون هناك قراءات عشوائية يقوم بها أشخاص متعددون ، ولكنها لا تشكل نظاما نظريا نقديا يستطيع أن يستوعب كمية ضخمة من النصوص أو يفسر ، على الأقل ، النص المدروس تفسيريا متكاملا .

ان المهم هنا ، هو ان نلاحظ كيف تناول الرجلان مشكلة النقد الادبي : بالنسبة لـ (ريتشاردز) ، الذي قدم اوصافا متنوعة لازمة النقد الادبي ، حينما أراد أن يتجاوز مشكل عدم عالمية النقد من أجل علمنة للنقد ، وجد نفسه يسير نحو « السيكولوجية الاختيارية » ، وبالتالي نحو « دراسة الاثر الادبي في اطار العلاقة بين الكاتب والقارئ » ، أو بعبارة أخرى ، في الحافز ورد الفعل . أما بالنسبة لـ (شومسكي) فإنه يعتبر النقد الادبي كعلم الاجتماع ، كلاهما لم يستطع أن يوجد مفاهيم محددة ... فاذا كان علم الاجتماع لا يملك

نظرية لغوية كنظرية نموذجية *Modèle* ولم يستطع أن يعتبر القول الاجتماعي *Discours* أساسيا في التحليل . فان النقد الأدبي (كما يرى شومسكي) لا يتوفر على مبادئ محددة ، ولهذا أصبح مجموعة من القراءات ، لكل واحد الحرية في الذهاب بها الى المدى الذي يريد : قراءة سوسيولوجية ، قراءة بيكولوجية ، قراءة تاريخية ... للخروج من مشكل انعدام المبادي . بعد هذه المقدمة ، هل يمكن لنا أن نتحدث عن وضعيتنا نحن في هذا الإطار العام لازمة نقدية ؟ ، قبل ذلك ، أريد أن أدلي بملاحظتين :

(1) الأولى : هي أنني حينما وضعت هذه النقاط كنت اعتمد على الذاكرة ولم أقم بمراجعات دقيقة .

(2) الثانية : هي أن الحديث الذي سأقدمه يتعلق ببعض الممارسات النقدية وليس بالكل .

وكبداية من الضروري الإشارة الى مسألة التكوين الثقافي لهؤلاء النقاد بصفة عامة . انه تكوين جامعي ، مضطرب (يحمل سمات المحتوى العام للتعليم الجامعي في المغرب ابان فترة الستينات) من جهة ، ويهيمن عليه التراث من جهة ثانية (لادراسات الادبية التي تتعلق بعصور قديمة) او مناهج تدرس من خلالها نصوص أدبية حديثة ، لكن بواسطة مفاهيم « التاريخ الأدبي » (الظروف الموضوعية ، البنية الثقافية العامة ، المؤثرات او تداول الموضوع الى آخره) . قلت : « انه تكوين تراثي » بمعنى انه لا يتضمن قراءة صحيحة للتراث ، وانما قراءة سطحية ، وفي بعض الاحيان مشوهة ، هذا النموذج الذي كان سائدا في الجامعة ، هو نموذج مدرسي ، كان ثريا في تحليل (لانسون Lanson) ، لكن ، بالاستعمال المعياري له ، أصبح المنهج فقيرا في النهاية . ويتجلى هذا الفقر ، مثلا ، في ظاهرة تقديم المضمون على الشكل - كان يقع ، في الدراسات الادبية التي تتعلق بالشعر ، تهميش العروض والبلاغة ، اذ لم يكن بالامكان - لاسباب كثيرة - توظيف العروض والبلاغة توظيفا صحيحا لقراءة التراث لانه ليست هناك نظرية للكتابة العربية : هكذا ننقل من مشكل جزئي الى مشكل كلي .

هناك نقطة أخيرة في هذا التكوين ، هي مسألة ضعف التكوين النظري العام : فلم يكن هناك ، في الجامعة ، تكوين نظري يتناول المشاكل الكبرى للأدب ، كمشكل تطور الأنواع الأدبية (الانتقال من الملحمة الى الرواية) او مشكل حركة هذه الأنواع (العلاقة بين المذكرات الشخصية ، كأخذ أشكال الكتابة ، والسيرة الذاتية) او مشكل البنية الموسيقية وعلاقتها بدلالة الشعر ذاته ... مشاكل نظرية متعددة ، أساسية ، في فهم ظاهرة الكتابة ، لم تكن مطروحة في برنامج التكوين الجامعي .

هذه الوضعية أدت الى نشوء توتر : فالنقاد الذين كانوا اذ ذاك طلبة ، نشأ لديهم شعور بأن هذه المناهج عقيمة ، متصلة ، وانه ينبغي اختيار

لكن مسألة المنهج الآخر كان الاختيار فيها محددا ، وتبعاً لذلك وجد هؤلاء الطالبة القدماي بأن نموذج النقد الشرقي (مصر ، سوريا ، لبنان) لأنه يخرج على هامش الجامعة في مجالات شبه مختصة ويلبي رغبتهم في تجاوز الوضعية الثقافية الموجودة ، هو للنموذج الممكن ولقد كان النقاد المغاربة يجدون هذا النموذج (الذي ارتبط في أذهانهم بالوضعية الميثولوجية للمشرق الذي يثور) ممثلاً في بعض الاسماء : مندور ، غالي شكري ، محمود أمين العالم ، لويس عوض ، الخ . ومع كثرة القراءة ، استقرت هذه الاسماء كنماذج في الذاكرة ، وفي اللاوعي .

إن النموذج الشرقي كان مطعماً : من جهة بمفاهيم سوسيولوجية ، ومن هنا هيمنة العلاقة بين النص الأدبي والمجتمع أو النقد الأدبي والتاريخ ، ومن جهة أخرى كان هذا النموذج مطعماً بالايديولوجيا : مفاهيم الالتزام القومي ، الناصري ، الماركسي (الحزب ، الطبقة الخ) . وهذان النوعان من المفاهيم شكلا الرواسب الأساسية للنموذج النقدي الشرقي في المغرب ، والذي كان هو الممكن الوصول إليه . لا معظم الذين تخرجوا من كلية الآداب (قسم اللغة العربية) كانت هذه اللغة ، لديهم الوسيلة الوحيدة للاتصال المعرفي .

على أن هذه الوضعية قد أحدثت فيها بعض التغييرات نظراً لأن المغرب هو غير المشرق . فبدلاً من التركيز في المنهج على تأويل المضمون (وهو ما كان مهيمناً في النموذج الشرقي) حلت رغبة ، غير منظمة ، في الوصول إلى معرفة العلاقة بين الشكل الأدبي والمحتوى . وبالتالي ، بدأت سيرورة بطيئة من الشرح إلى الوصف ... لا تزال الآن في خطواتها الأولى (وتحتاج إلى تدعيم نظري متين) . واستبدلت المفاهيم السوسيولوجية التي تتركز في فهم علاقة الأدب بالمجتمع كعلاقة انعكاس ، استبدلت بمفاهيم سياسية محددة : مثلاً ، استعمال مفهوم الصراع الطبقي ، البرجوازية الصغيرة ، داخل الحديث النقدي لتأويل الشكل والمحتوى في نفس الوقت . كذلك ، بدل المفاهيم الايديولوجية التي أشرنا إليها في النموذج الشرقي . جاءت مفاهيم تتعلق بجدول الأعمال السياسي : الثقافة الوطنية ، الثقافة الرجعية ، الثقافة التكنوقراطية ... الخ . وفي إطار هذه المفاهيم الايديولوجية ، السوسيولوجية السياسية ، تنتج صراعات كما نلها ظاهر نقدي ، لكنها في العمق ذات مدلول سياسي .

هذه الوضعية ساهم في تدعيمها كون النقد الأدبي ، عندنا ، متمركز في الصحافة اليومية . وليس من الصعب ، في هذا الصدد ، أن نجد تحليلاً نقدياً ينشر جنباً إلى جنب مع تحليل سياسي ، وناقداً لا يخاطب قراء متخصصين في النقد الأدبي . بل يخاطب المثقف المتوسط السغوف بالقراءة العابرة .

وهذا هو أحد العناصر التي جعلت النقد ، عندنا ، ينساق بسهولة نحو تبسيط المفاهيم السوسنيولوجية ، ولا يكلف نفسه مشقة البحث النظري الرصين في الأدب .

الأمر الثاني ، هو أنه ، نتيجة لازمة النشر ، وقع اللجوء الى الصحافة البرمية ، ك مجال لتبليغ الحديث النقدي للقراء . على أن المشكل ليس مشكل المكان (بمعنى : هل يكفي أن أكتب في صحيفة معينة حتى أكون ذا صفات معينة ؟ تقدمي ، رجعي ، يميني ، يساري الخ) بل المشكل هو أن هذا الحديث النقدي يستعمل كرافد وحيد داخل تيار كبير من ثقافة مؤولة بمفاهيم اليسار واليمين .

إن هذه المعضلة لا يمكن حلها في الوقت الراهن .
عن هذه الوضعية : في السلوك النقدي ، في مكان الكتابة ، نتجت ثنائيتان : (I) البحث النقدي . (2) المقالة النقدية . وفي إطار هذه الثنائية وقع التخلي عن البحث النقدي (الذي يتطلب وقتا تحضيريا طويلا وتاملا نظريا دقيقا) والاتجاه نحو المقالة النقدية (التي هي عمل ، على العكس ، يمكن إنجازها بسرعة وسهولة) لتغطية الأعمال الأدبية التي تنتشر في الصحافة اليومية أو خارجها ، ومن هذه الثنائية نشأت وضعية أخرى هي وضعية التداخل فيما بين النقد المتخصص والنقد غير المتخصص . فالنقد المتخصص غائب على المستوى الكلي لكنه حاضر على مستوى المفاهيم ، والنقد غير المتخصص حاضر على المستوى العام ، حاضر على مستوى اختلاط المفاهيم .

عن هذه الثنائية الأولى ، ترتبت ثنائية أخرى ، وهي ثنائية : الكلي والجزئي . فإذا كان المطلوب من النقد هو الوصول الى فهم البنية الكلية للعمل الأدبي ، وبالتالي الى النظام الذي تتجسد فيه أجزاء النص كعلاقات ، فإن الطرف الثاني من الثنائية يهتم بالملاحظة الصائبة ويقف عند حدود المقروء بكيفية مباشرة في العمل الأدبي ، ولا يتجاوز هذه الحدود الى الآلية أو الجهاز الذي أنتج العمل الأدبي ككل .

اذن ، فمن جهة : هناك البحث والمقالة . ومن جهة : هناك ما هو نقد كلي ، وما هو نقد جزئي ... هذه الوضعية ، مضافا اليها مشاكل التكوين الثقافي وأماكن النشر ، هي ما يمكن أن أسميه (بصفة شخصية) مازقا : إنه مازق ، لأن الأمر يتعلق ببنية وليس بحالة يمكن تشخيصها بسهولة . لماذا ؟

— لأن النقد الأدبي ، عندنا ، لم يحدد موضوعه بعد . فحين نقوم بنقد أدبي ، فالمفروض أن نبرز الفروق وأن نحدد ما نريد قوله بالضبط : هل نقوم بالحديث عن وضعية ثقافية عامة ؟ هل نشير بطرف خفي الى صراعات سياسية ؟ أم المطلوب هو اكتشاف النص الأدبي ، موضوع الكتابة (هذا

النص الذي يبدو فيما بعد « مسكونا » عنه !)
- لاننا لم نتمكن بعد من رسم حدود العلاقات فيما بين النقد الادبي
والسوسيولوجيا ، من جهة (الى اي حد يمكن الاستفادة من السوسيولوجيا
في النقد الادبي ؟) ومن جهة أخرى لم نستطع أن نحدد كيف يمكن للنقد
الادبي أن يستفيد من الابحاث الشكلية في الادب : بعبارة أخرى ، الى أي
حد يمكن أن نستفيد في النقد الادبي الذي هو يومي ، من هذه الابحاث
المتعلقة بالنظرية العامة للادب ؟

انني اترك لكم الكلمة .

« الآداب »

مجلة شهرية تعنى بشؤون الثقافة والفكر

المدير المسؤول : د. سهيل ادريس .

صدرت منذ 1952 ، ومع ذلك فهي ما تزال حاضرة بيننا

باختياراتها القومية ، وتوجهها الوحدوي .

تقارير وملفات تغطي الحركة الثقافية في العالم العربي .

دراسات . نصوص قصصية وشعرية .

تباع في كل الاقطار العربية .

ثمن العدد بالمغرب 7 دراهم .